

الأثر الحضاري لهجرة الأندلسيين إلى المغرب الأوسط

(بيت أبي العيش الخزرجي الإشبيلي أنموذجا 7هـ/13م)

**The cultural impact of the migration of Andalusians to the
Central Maghreb**

(Dar Abi Al-Aish Al-Khazraji, Seville as a model, 7 AH/13 AD)

ط.د. عائشة شيروود*⁽¹⁾ أ. سامية جباري⁽²⁾

⁽¹⁾⁽²⁾ جامعة الجزائر 1- بن يوسف بن خدة، مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية كلية
العلوم الإسلامية خروبة، الجزائر.

⁽¹⁾a.chiroud@univ-alger.dz ⁽²⁾samiadj9@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2024/10/21؛ تاريخ القبول: 2024/01/02؛ تاريخ النشر: 2025/06/07

ملخص:

يعالج هذا البحث الإسهامات الحضارية لعلماء الأندلس المهاجرين إلى المغرب الأوسط في مختلف المجالات السياسية والعلمية والاقتصادية وغيرها خلال القرن (السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي)، مع دراسة دوافع الهجرة وصعوباتها، وكذا التطرق إلى بيت عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي، وأسرتة العلمية وإسهاماتها الحضارية المتنوعة كنموذج عن بيوتات الأندلس، معتمدا على المنهج التاريخي، الاستقرائي، والتحليلي.

وتكمن أهمية البحث في كونه يتعلق بتاريخ العلماء الأندلسيين والمعالم الأندلسية الحضارية التي خلدها التاريخ إلى غاية اليوم في بلاد المغرب الأوسط، والهدف منها تسليط الضوء على تأثير مجتمع المغرب الأوسط بالوافدين الأندلسيين والتحامه معهم ومساندته لهم في محنتهم، لنصل إلى نتائج مهمة من بينها أن اختيار علماء الأندلس لبلاد المغرب الأوسط كان بفضل المعاملة الحسنة التي أتاحها السكان لهم، إضافة إلى اهتمام السلاطين بهم، وتقليدهم أهم المراكز السامية بالدولة، فكانت هذه الهجرة مبعثا لتبادل المعارف

والعادات بين الضفتين.

الكلمات المفتاحية: الهجرة؛ علماء الأندلس؛ المغرب الأوسط؛ الأثر الحضاري؛ عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي.

Abstract:

This research deals with the cultural contributions of Andalusian scholars who immigrated to the Central Maghreb in various fields during the seventh century AH/13 AD, while studying the motives and difficulties of migration, We touched on the house of Abd al-Rahim bin Abi al-Aish al-Khazraji in Seville, and his scientific contributions as a model for immigrants, relying on the inductive and analytical historical approach.

Its goal is to highlight the solidarity of the residents of central Morocco with the Andalusian immigrants and its support for them in their plight, The result was that the migration of Andalusians to the Central Maghreb was due to the sultans' good treatment of them and the availability of work.

Keywords: Migration; Andalusian scholars; the Middle Maghreb; cultural impact; Abd al-Rahim bin Abi al-Aish al-Khazraji al-Ishbili.

مقدمة:

شهد المغرب الأوسط خلال القرن (7هـ/13م) تنوعاً حضارياً لا مثيل له بفضل الوافدين الجدد المتمثلين في أفذاذ علماء الأندلس المهاجرين إليه، والذين اتخذوا منه مستقراً لهم، نظراً لما لاقوه من حفاوة وتكريم وحسن ضيافة من سلاطينه، خاصة السلطان يوغمراسن، عقب ما حلّ بهم من حرمان وأذية وتنكيل، بسبب حملات الاسترداد النصراني التي وترت أوضاع الأندلس ودفعته بعلمائها وسكانها إلى الهجرة، فكان قدومهم إلى المغرب الأوسط بشري خير على الطلاب، الذين استقوا من معين علومهم وانتفعوا بها في شتى المجالات، كالصيد والتجارة وهندسة المباني والحدائق وزخرفتها وفنون الزراعة والحرف اليدوية، ونشر العلوم المختلفة من فقه، وأدب، وشعر، وعلم الفلك، والطب، وعلوم القرآن وتفسيره، وعلوم الحديث، وغيرها.

فنال الأندلسيون اهتمام وترحيب أهل المغرب، حتى إنهم اندمجوا معهم، واستوطنوا ديارهم، فنشأت بالمغرب بيوتات علمية، وهي عبارة عن أسر أندلسية ذات علم ودين هاجرت بصفات جماعية واتخذت من المغرب الأوسط مستقرا لها، ومن هذه البيوتات نجد بيت عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي الذي اشتهر بالزهد والوعظ، والفقه والتفنن في التفسير، والتأليف.

ومن هذا المنطلق سنحاول الإجابة عن إشكالية البحث التي مفادها: ما مدى مساهمة هجرة علماء الأندلس على الصعيد الحضاري في بلاد المغرب الأوسط خلال القرن (7هـ، 13م)؟ انطلاقا من الفرضيات التالية: لماذا هجر الأندلسيون أرضهم وديارهم؟ وما السبب وراء اختيارهم لبلاد المغرب الأوسط؟ وهل اعتلوا مراكز هامة في السياسة أم أنهم اكتفوا بنشر العلوم؟ هل كانت لهم إسهامات حضارية؟ وإن كان لهم فما هي؟ من هو عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي وأسرته؟ وأين ذاع صيته؟

هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال هذه الدراسة، التي اعتمدت فيها على المنهج التاريخي، الاستقرائي والتحليلي، بهدف تسليط الضوء على التأثير الإيجابي للهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط، من خلال تطوير العلوم المختلفة، وتعلم الصنائع والحرف، ومشاركة العادات والتقاليد والثقافة المتنوعة، حتى غدت شوارع المغرب الأوسط تكتسى بحلة أندلسية بهية.

2. مفاهيم الدراسة:

مفهوم الهجرة والتهجير:

الهجرة لغة: هي الخروج من أرض إلى أخرى وهي إما: اختيارية تتم طواعية رغبة في الانتقال دون ضغط أو إكراه إلى وطن جديد بحثا عن الأفضل، وإما إجبارية: تتم بواسطة قوة خارجية تعمل ضد إرادة ورغبة الأفراد أو الجماعات، كطرده المواطن من وطنه أو نقله غالبًا بالقوة إلى أماكن بعيدة ومختلفة، فهو غالبا قرار توجبه اعتبارات سياسية نابعة عن ظروف اجتماعية أو تاريخية قاهرة، في حق أقلية مسالمة رفضت الاستسلام والخروج⁽¹⁾.

(1) : ميلودة الحسنوي، الموريسكيون في الفكر التاريخي، قراءة في الأبحاث والدراسات الموريسكية الإسبانية، (د.ط)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2001م. ص 187.

التعريف بالمغرب الأوسط:

يعد المغرب الأوسط جزءاً من المجال الجغرافي للمغرب الإسلامي، ظهر كلفظ اصطلاحي في الكتابات الجغرافية ابتداءً من القرن (5هـ-11م)، وكان أول من استخدم هذا المصطلح هو البكري⁽¹⁾، ويشمل المغرب الأوسط بلاد الجزائر، وكانت عاصمته مدينة تاهرت في عهد الدولة الرستمية الخارجية الإباضية، وتقع تقريباً في مكان تاهرت الحالية Tiaret في ولاية وهران Oran غربي الجزائر، وفي أيام الدولة الزييرية الصنهاجية التي خلفت الفاطميين في حكم المغرب، صارت العاصمة مدينة أشير، التي تسمى حالياً بنية Bénia من مدينة الجزائر، ثم انتقلت العاصمة من تاهرت إلى تلمسان غرباً أيام دولة بني عبد الواد، في القرن السابع الهجري، وأخيراً صارت جزائر بني مزغنة، وهي الجزائر العاصمة الحالية⁽²⁾.

3. السياق التاريخي لحركة الهجرة الأندلسية إلى بلاد المغرب الأوسط ومجالها الجغرافي:

إذا نظرنا إلى المجال الجغرافي -المغرب الأوسط والأندلس- والمسار التاريخي للبحث-أي القرن 7هـ/13م وما قبله-، والأحداث التي سبقته وكانت سبباً لما وقع فيه من أحداث، نجد أن هذه المرحلة شهدت نشاطاً هجرياً ملفتاً للانتباه، والسبب الرئيسي يعود إلى اضطراب الأوضاع السياسية في الأندلس مع بداية حركة الاسترداد النصراني التي تزعمها الكنيسة، وظهور أصوات انهزامية تنادي بالرحيل من غير عودة، ومن بينهم هؤلاء العلماء المهاجرين نجد ابن برطلة البلنسي، وعبد الله ابن الفراج المشهور بابن العسال، وابن محرز من مدينة بلنسية الذي كان يمثل شيخ الجماعة الأندلسية، وأبو عبد الله ابن الآبار، وغيرهم ممن هاجروا إلى كل من بجاية وهران وتلمسان واتخذوها ملجأ لهم⁽³⁾.

ومع مطلع القرن 6هـ/12م، وسقوط المرية بيد الصليبيين الفرنسيين من بروفانس ومدينة لانغدوك جنوب ووسط فرنسا، اضطّر الأندلسيون إلى الهجرة نحو المغرب الأوسط واختاروا كل من بجاية الناصرية وفحص الجزائر، ثم استقروا ببساتين ثامنفوست

(1) : فؤاد طوهارة، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط- السياق التاريخي والمجال الجغرافي، مجلة حوليات التراث جامعة مستغانم، العدد 15، 2015م، ص156.

(2) : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (د.ط)، بيروت، 2013م، ص 9-10.

(3) : أنطونيو دومينغيز هورتز وبرنارد وينثنت، تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون -حياة ومأساة أقلية-، ترجمة عبد العالي صالح طه، (د.ط)، دار الإشراف، قطر، 1988م، ص3.

القريبة من مرفأ البحرية الجزائرية الشرقية، مساهمين بذلك في صد الهجمات الصليبية التي كان هدفها فرض السيطرة على ضفتي المتوسط في إطار الإمبراطورية الجديدة⁽¹⁾.

فأما أهل بلنسية، فكانت هجرتهم نحو تونس الحفصية وبجاية، ثم خرجت عائلات كثيرة من تونس واستقرت بمدينة القل وتادلـس -"دلـس" حاليا- في بداية الأمر، ثم انتقلت إلى متيجة -فحص الجزائر- أيام اشتداد الحملات الصليبية الإسبانية على بجاية وبونة والقالة ودلس، فكانت هذه الهجرات بطريقة أو بأخرى منذ أيام المرابطين والموحدين تتم نحو جزائر الثعالبة، ليساهموا في تأسيس مدينة القليعة فيما بعد، ويلاحظ في هذه الفترة أن الهجرة الأندلسية كانت هجرة اضطرارية قسرية جماعية، والسبب في ذلك يعود إلى حالة الاستنفار والرعب والجوع والحزن والحروب الدامية والضغوطات التي مارسها الصليبيون على أهل الأندلس، وهذا ما دفعهم إلى هجرها دون عودة⁽²⁾.

وهذا يمكن القول أن الهجرة في هذه المرحلة كانت عبارة عن لجوء سياسي إلى أقرب مأوى يتوفر فيه الأمن والحياة الكريمة، فكان المغرب الأوسط ضمن المدن المهاجر إليها، أما الوجهة فكانت حسب الحاجة والمتطلبات، فمنهم من اختار متيجة والقل لبراعته في مجال الزراعة، ومنهم من اختار وهران لما فيها من الصناعة والتجارة، ومنهم من اختار بجاية وتلمسان والمسييلة، لكونها من أهم حواضر للعلم استقطابا للطلبة والعلماء⁽³⁾، ومن هؤلاء يحيى ابن خلدون الذي برع في الكتابة التاريخية وأشهر كتبه كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" كما ترجم للعديد من علماء الأندلس⁽⁴⁾.

فكان لحضورهم إلى المغرب الأوسط أثرا حضاريا طيبا لا يزال يُستقي من منابعه، وينتفع من نتائجه بفضل أولئك الأمراء والحكام أمثال يوغمراسن الذين رحبوا بهم واستقبلوهم وعرفوا قدرهم وأنزلوهم منازلهم، واستثمروا طاقاتهم، وفتحوا المجال أمامهم ليبعدوا كل حسب ميوله، فأبدعوا وعلموا وتعلموا.

(1): فرنان برودويل، المتوسط والعلم المتوسطي، تعريب مروان أبي سمرا، (د.ط)، دار المنتخب، بيروت، 1993م، ص47.

(2): محمد سعداني، الأندلسيون وتأثيراتهم الحضارية في المغرب الأوسط (من: ق7-9هـ/13-15م)، (د.ط)، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2016م، ص65.

(3): محمد سعداني، المرجع نفسه، ص47-46.

(4): محمد سعداني، المرجع نفسه، ص145-146.

4. الأثر الحضاري لهجرة علماء الأندلس إلى بلاد المغرب الأوسط خلال القرن (7هـ/13م):

1.4. الإسهامات الحضارية لعلماء الأندلس في بلاد المغرب الأوسط:

يقول العلامة ابن خلدون: "وأما أهل الأندلس، فافترقوا في الأقطار، عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم...، فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية، من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة"⁽¹⁾، وسنذكر فيما يلي بعضاً من إسهاماتهم الحضارية:

1.1.4. الإسهامات السياسية والإدارية:

استطاع حكام وسلاطين المغرب الأوسط استثمار الجالية الأندلسية في تدعيم أركان الدولة، والاستفادة من خبراتهم، من خلال إسناد أسعى الوظائف والمناصب للنخبة المثقفة منهم⁽²⁾، ففي العهد الزياني يرى جورج مارسلي بأن هؤلاء الوافدين من أهل الأندلس أصحاب مال وصنائع وثقافة، تفوقوا على من سواهم في العلوم وفي الفنون والآداب، ونالوا مكانة متميزة في الوسط الاجتماعي جذبت اهتمام السلاطين والحكام نحوهم⁽³⁾، ومنهم من اختار التجنّد في الكتائب العسكرية لمساندة الجزائر في صد هجمات النصارى عبر ساحلها⁽⁴⁾.

فعلى سبيل المثال نجد السلطان يوغمراسن قام بتقليد عدد من الفقهاء الأعلام وظائف مختلفة في دولته، كأبي بكر محمد بن عبد الله بن الخطاب المرسي الأندلسي الذي عمل كاتباً للرسائل، وابن وضاح كلفه بالخطابة والشورى، وأبو محمد عبدون بن محمد الحباك في الخطابة والقضاء أيضاً، كما لا ننسى أسرة العقباني التي احتكرت منصب القضاء لمدة تزيد عن القرن وربع القرن (767-896هـ/1365-1490م)⁽⁵⁾، وأبو بكر بن خطاب الغافقي

(1) : عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار،

(د.ط)، دار الفكر، لبنان، 2000م، ج 7، ص 297.

(2) : فؤاد طوهارة، مرجع سابق، ص 161.

(3) : جورج مارسلي، تلمسان، ترجمة سعيد دحماني، (د.ط)، دار التل للنشر، الجزائر، 2004م، ص 86.

(4) : عبد الرحمن ابن خلدون، مرجع سابق، ج 6، ص 438.

(5) : علاوة عمارة وآخرون، المغرب أوسطيات، دراسة في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط، ط 1، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2013م، ص 107.

الذي اشتغل كاتباً عند السلطان يوغمراسن نظراً لبراعته في الشعر والأدب⁽¹⁾.

وفي عهد السلطان عثمان بن يوغمراسن وابنه أبو حمو موسى الأول، استطاعت أسرة بنو الملاح من قرطبة الظفر بقرية وخدمته، حتى أنه أسند إليها أربع وزارات مختلفة، فمحمد بن ميمون بن الملاح تولى وزارة المال والحجاجة معاً، ثم عين ابنه محمد الأشقر من بعده، ثم ابنه إبراهيم بن محمد بعدهما، كما أشرك معه في الوظيفة من قرابته محمد بن علي بن القاسم المرسي، وعلي بن عبد الله بن الملاح، في وظيفة الكتابة والإنشاء⁽²⁾، وظلت هذه الأسرة تختص بالمناصب الإدارية السامية، إلى عهد ابن تاشفين الأول أبو حمو الأول، الذي نكحهم عندما ثار على أبيه وقتله، مع خاصته وخلصائه من بني ملاح، بالدار البيضاء بتلمسان سنة (718هـ/1318م)⁽³⁾.

أما في عهد أبو موسى حمّو الثاني، فلا ننسى القاضي أبو الوليد محمد بن محمد بن رشد، والقاضي محمد بن علي ابن القاسم المرسي، اللذان كانا كاتبين في عهده ومن المقربين إليه⁽⁴⁾، وهكذا استطاع الأندلسيون بفضل علمهم ومعرفتهم وحنكهم التقرب من السلاطين والحكام فشغلوا مناصب هامة في البلاد: من قضاء ووزارة وكتابة وغيرها، فحضوا برعاية سلاطينها، واحترام أهلها.

2.1.4. التأثير الاجتماعي:

ما إن وصل الأندلسيون أرض تلمسان حتى شرعوا في بناء المساكن بناء مستوطن لا بناء ضيف، فشيّدوا المدارس والزوايا والقصور، والحصون، والمصانع، والمتاجر، واهتموا بالزراعة والفلاحة، والملاحة، وتوزعوا في نواحي البلاد، وتزوجوا من أهلها وناسبوهم وشاركوهم في الأموال والأراضي والأولاد، وعلموهم صنائعهم، وعلموهم، وحرفتهم وفنونهم، ونشروا ثقافتهم، فأصبحوا جزءاً مُهمّاً من النسيج الاجتماعي للمغرب الأوسط⁽⁵⁾.

ومن مظاهر هذا الاندماج تأثر مجتمع المغرب الأوسط بالأندلسيين في شتى المجالات

(1): محمد سعداني، مرجع سابق، ص 147.

(2): عبد الرحمن ابن خلدون، مصدر سابق، ج 7، ص 106.

(3): محمد سعداني، مرجع سابق، ص 128.

(4): المرجع نفسه، ص 150.

(5): المرجع نفسه، ص 164-165.

المختلفة كالمأكّل والملبس والمتاع، ومن الأمثلة الدالة على ذلك في المأكّل نذكر: "الملوزة، البسكوشو، البسطيلة والموخابنة وهي نوع من العجائن المحشوة بالجبن، تقلى وتأكّل مغلفة بالسكر والقرفة والعسل وشراب الورد"⁽¹⁾، وفي الألبسة نجد: البنيقة وهي عبارة عن خمار صغير تضعه النساء على رؤوسهن حال خروجهن من الحمام، وقمصان الحرير المطرزة بالألوان والتي تحمل اسم القمجة، وهي غرناطية التسمية⁽²⁾.

3.1.4. الأثر الاقتصادي للأندلسيين ومساهماتهم في النشاط الحرفي:

ومن الأسباب الموضوعية التي أدت إلى استقرار هذه الجاليات الأندلسية بمتيجة، وضواحي مدينة الجزائر العاصمة، وفحصها بصورة خاصة، هو حاجة الثعالبية إلى الخبرة الزراعية والحرفية لهؤلاء الأندلسيين، كتعلم كيفية نسج الزرابي الأندلسية، وغيرها من الصناعات الحريرية والجلدية من دروع وأحذية وأفرشة، ليس هذا فحسب بل استفادوا منهم في تربية دودة القز، التي كانت مصدرا هاما للإنعاش الاقتصادي، ولا ننسى صناعة مواد البناء كالخزف والقرمذ والجليز، فكان هذا دافعا لاستقرار ما يقارب ثلاثمائة أسرة أندلسية هاجرت من قشتالة، ومن شرق الأندلس وحواضره الشهيرة كبلنسية، وجزيرة شقر بمدينة القل، "مدينة المهاجرين الأندلسيين" كما ينعتها مارمول كربخال، فأمست هذه المدينة العتيقة، الغنية بالفواكه -خاصة أشجار الليمون والبرتقال- بساتينا ومروجا، بفضل خبرتهم في مجال الزراعة⁽³⁾.

4.1.4. الأثر الثقافي:

لقد كان للأندلسيين الأثر الواضح على الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط، وذلك من خلال تفعيل الحياة العلمية والفكرية⁽⁴⁾، فقد اشتغلوا بالتدريس فكونوا خلفاءهم من

(1) : سلمى خضراء الجبوسي، الحضارة العربية في الأندلس، ط1، مركز الوحدة العربية، لبنان، 1998م، ج2، ص103.

(2) : محمد رزوق، الأندلسيين وهجراتهم إلى بلاد المغرب خلال القرنين (17/16م)، ط3، إفريقيا الشرق، المغرب، 1998م، ص126-127.

(3) : ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مجلة أوراق، العدد4، مدريد، 1984م، ص232.

(4) : ناصر الدين سعيدوني، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، التجربة الأندلسية بالجزائر، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1996م ص86.

العلماء والأئمة، مخلفين تراثاً علمياً زاخراً، إلا أنهم احتكروا قطاع التعليم في المغرب الأوسط لاسيما في المدن والحوضر، فبلغوا مناصب جليلة للتعليم في مجال اللغة والآداب، والفن والموسيقى، وتركوا للسكان المحليين السيطرة الدائمة على ميدان الشريعة والعلوم الدينية، وهكذا برز الأندلسيون في كافة الميادين الأدبية، من خط ونحو إلى بلاغة وشعر وموسيقى، فأحدثوا تجديداً في طرق التدريس عن طريق المحاور والمذاكرة وإلقاء الأسئلة، مما حفز أبناء تلمسان للتزاحم على التقييش بين أيديهم في حلقات المساجد ودور العلم⁽¹⁾.

وممن اتخذ من المساجد والزوايا منبرا لتعليم القراءان وعلومه، والحديث والأدب وفنونه، عبد الرحيم ابن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي وأسرته، الذين شغلوا منصب الخطابة بالمسجد الأعظم بتلمسان لعدة سنوات، وأبو عبد الله الحلوي الذي كان قاضيا بإشبيلية، فلما هاجر إلى تلمسان سلك طريق الصوفية، والعبادة الروحانية، وكان فقيها وعالما جليلا، وكذا الفقيه العالم الولي الصالح يحيى بن صيقل المرسي التلمساني، الذي قال عنه يحيى ابن خلدون في بغية الرواد: "كان راويا للحديث عدلا صالحا"⁽²⁾، ومحيي الدين بن عربي شيخ المتصوفين⁽³⁾.

ومنهم من وضع بصمته في علم الهندسة المعمارية، فتجلت لمسته في تزيين العمارات والقصور ليخلق جوا أندلسيا بهيا أينما حلّ محافظا بذلك على حضارته وعاداته الأندلسية، ومنهم لسان الدين ابن الخطيب، الذي كان مؤرخا وجغرافيا لكثرة رحلاته، إضافة لكونه مهندسا، ومن علماء الأندلس المؤثرين أيضا بعلومهم العالم: أبا علي منصور ابن علي بن عبد الله الزواوي، نزيل تلمسان، (ت770هـ/1368م)، الذي كانت له مشاركات في كثير من العلوم العقلية والنقلية، لكونها قرأ بالأندلس على الإمام ابن الفخار الألبيري وأجازه وأذن له بالتدريس فمضى يعلم الطلاب من فيض علمه ومعرفته⁽⁴⁾.

كما كانت لهم إسهامات في الموسيقى والفن، فقد جاؤوا بالآلات موسيقية أندلسية

(1): محمد سعداني، مرجع سابق، ص 137.

(2): يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: حميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2011م، ج 1، ص 105.

(3): محمد سعداني، مرجع سابق، ص 140-141.

(4): عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، -دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية-، (د.ط)، موقف للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ج 2، ص 330.

جديدة على المغرب، مثل العود والكمنجة، والرباب، والطبيلة، والصنوج، والدربوكة، والطار، فتغنوا بها في المناسبات الدينية والدنيوية بقصائد المديح، والتشبيب ووصف الطبيعة والثناء، وشعر الحرب، والشعر التعليمي، وشعر الغزل، وعملوا على تعليم الشعر والموسيقى لنشر ثقافتهم وتقاليدهم، ونذكر منهم: الشاعر ابن الخميس، ومحمد بن يوسف القيسي الأندلسي المعروف بقصائد المديح النبوي⁽¹⁾، ومحمد بن صالح شقرون الأندلسي التلمساني الذي اهتم بشعر البلاط والمدح في السلطان أبو حمّو موسى الثاني⁽²⁾.

2.4. إسهامات بيت عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي:

عرف المغرب الإسلامي منذ بداية وفود المهاجرين الأندلسيين، إسهامات عديدة في مجال البحث الفقهي والأصولي والعقدي والكلامي، والشعر والأدب ...، اشتهر بها علماء أفذاذ، أثروا الدرس العقدي، خدمة لمقاصد العقيدة الإسلامية، بتقريب مضامينه، وشرح ما أشكل منه.

ولا تزال البحوث متواصلة لتنبئ عن تميزهم وعلو مكانتهم في علوم المعقول، وتكشف عن أثر هؤلاء العلماء، ومساهماتهم في إثراء النقاشات العقدية التي كانت موجودة في الغرب الإسلامي، بفضل ملكة النقد لديهم، وفي هذا المقال سنعرفكم ببيت من بيوت الأندلس العريقة، المشهورة في ربوع الأندلس، كإشبيلية وألميرة وشاطبة، التي اتخذت من تلمسان موطنًا لها، وهو بيت عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي⁽³⁾، والتي اشتهر منه ثلاثة علماء ذاع صيتهم في العلوم النقلية والعقلية كالأدب والخطابة، غير أننا لم نظفر بالكثير الذي يشفي الغليل عن هذه الأسرة، سوى إشارات في بعض الكتب عن الأب والحفيد، أما الابن فكثير من الكتب تناولته لما له من شهرة في العلم والفهم فاقت أقرانه.

ومن أشهر علماء هذه العائلة نجد الأب: عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش أبو بكر الخزرجي الإشبيلي الذي توفي سنة 541هـ⁽⁴⁾، وأبناؤه محمد المكنى بأبي العيش

(1): محمد سعداني، مرجع سابق، ص150.

(2): محمد سعداني، مرجع سابق، ص149.

(3): وسام رزوق، ملامح من النقد الكلامي عند أبي العيش التلمساني، (د.ط)، جامعة القرويين، فاس، المملكة المغربية، (د.ت)، ص12.

(4): أبو جعفر أحمد بن الزبير، صلة الصلة، تحقيق: أبي العلاء العدوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م، ج3، ص159.

الإشبيلي⁽¹⁾، والمكنى أيضا بأبي عبد الله⁽²⁾، وأحمد بن محمد بن أبي العيش ابن يربوع السبتي أبو عبد الله، وحفيده أبو زكريا يحيى ابن محمد ابن عبد الرحيم⁽³⁾، كما سيلي تفصيل أخبارهم.

1.2.4 الأب: عبد الرحيم بن محمد ابن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي المكنى بأبي زيد:

فقيه من أهل العلم والصلاح، ورث العلم عن جده فقد كان جده فقيها خطيبا محدثا⁽⁴⁾، وكان تلميذه الحافظ أبي محمد عبد الحق الإشبيلي جارا له في بجاية، فأخذ عنه الحديث وتعلم منه⁽⁵⁾، قال عنه يحيى ابن خلدون: "...عالم متفنن، ذو علم بالوثائق، وخطِّ بارع، خطيب الجامع الأعظم بتلمسان وإمامه"⁽⁶⁾، ونظرا لشح المعلومة حول سيرته ومصنفاته تعدّر معرفة سنة ميلاده، إلا أنه توفي سنة 582هـ⁽⁷⁾.

2.2.4. الابن: أبو العيش محمد بن عبد الرحيم الخزرجي التلمساني:

واسمه الكامل محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش الأنصاري الخزرجي التلمساني نسبة لتلمسان التي نشأ بها، وهو إشبيلي الأصل⁽⁸⁾، ويكنى بأبي العيش إضافة إلى أبي عبد الله⁽⁹⁾، لم يذكر تاريخ ميلاده، غير أن أحمد بابا التنبكي ذكر في كتابه "نيل الابتهاج"، أنه توفي بتلمسان في شهر صفر سنة 911هـ/1505م وأيد ذلك ابن مريم في كتابه "البستان"⁽¹⁰⁾.

(1) : محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، الأسفار 5، 2، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، 1965م، ص 587.

(2) : المصدر نفسه، ص 671.

(3) : يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص 103.

(4) : المصدر نفسه، ص 277.

(5) : محمد بن عبد الرحيم ابن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي، تنبيه الوسنان، مخطوط خزانة المسجد الأعظم بوزان، المملكة المغربية، رقم 479، ص 301-302.

(6) : يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص 140.

(7) : محمد سعداني، مرجع سابق، ص 152.

(8) : محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر 8، تحقيق: د محمد بن شريفة، (د.ط)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984م، ص 314.

(9) : يحيى بن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص 103.

(10) : أحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط 1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م، ص 588.

ولعلّ هذا خطأ في النقل والصواب أنه ولد في السبعمئة بدل التسعمئة، لأنه من المؤكد أنه توفي قبل سنة من وفاة يحيى ابن خلدون، الذي توفي سنة 780هـ⁽¹⁾، والذي صرح في كتابه "بغية الرواد": أنّ محمد بن أبي العيش الخزرجي توفي بتلمسان، ودفن خارج كشوطة منها، فلا يعقل أن يذكر المؤرخ يحيى بن خلدون في ترجمته سنة وفاة أبي العيش وقد توفي قبله، وكان أقدم من عرف من شيوخه وفاة: الشيخ أبو بكر محمد بن سعادة المتوفى سنة 600هـ الذي أجازه على علمه رغم صغر سنه، وبالنظر إلى أنه قد يكون جاوز 683هـ، فيمكن القول أن سنة ولادته كانت قريبة من 600هـ⁽²⁾.

- رحلة أبي العيش محمد بن أبي زيد في طلب العلم:

حصل ابن أبي العيش بدايات علومه عن شيوخ مدينة تلمسان التي نشأ بها، لكن شغفه للعلم دفعه إلى الرحلة في سبيل تحصيله من حواضر العلم البارزة في عصره، فكانت الرحلة جزءاً من حياته، فقد رحل إلى سبتة، وتجوّل في مكباتها تحصيلاً للعلم فقرأ كتاب تفسير الغزنائي المسمى بـ"عين المعاني"، ولقي الحافظ عبد الله بن سليمان بن حوط الله (ت612هـ)، واستقى من معين كتبه وعلمه وتلمذ بين يديه⁽³⁾.

ثم رحل إلى مالقة فعمل كاتباً لوالها، واستقر بها حيناً من الزمن ثم زار أشبيلية موطن أجداده، واطلع على كتاب "الإنباء في شرح الأسماء الحسنی" للقاضي محمد بن الحذاء في نسخته التي بخطه⁽⁴⁾، ثم تجول في ربوع الأندلس وعمل كاتباً لولاتها، وذلك لجمال خطه وبراعة أدبه ولغته، وعاد بعد ذلك إلى تلمسان، وانعزل عن الناس، وسلك طريق الزهد والتصوف، واتخذ أبا عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ت681هـ) مصاحباً له، ثم تولى منصب الخطابة مشياً على درب أبيه وجده فكانت قدوة لأولاده وأحفاده الذين أتموا الطريق من بعده⁽⁵⁾.

- شيوخه: من أبرز شيوخه الذين روى عنهم: أبو بكر محمد بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي (ت600هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الحق بن سليمان اليفرنی

(1): يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص43.

(2): المصدر نفسه، ج1، ص104.

(3): محمد بن عبد الرحيم ابن أبي العيش، مصدر سابق، ص13.

(4): المصدر نفسه، ص12.

(5): وسام رزوق، مرجع سابق، ص21.

(ت625هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن علي التجيبي المرسى (ت610هـ)، وأبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري (ت612هـ)⁽¹⁾.

- أقوال العلماء فيه: قال عنه يحيى بن خلدون في بغية الرواد: "وكان رحمه الله أديبا بارع الكتابة، شاعرا مجيدا، رائق الخط، ذا مشاركات في فنون العلوم، مؤلفا متقنا"⁽²⁾، كما وصفه صاحب نيل الابتهاج بأنه: "فقيه أصولي، من فقهاء تلمسان"⁽³⁾.

- مؤلفاته: ولأبي العيش عدة مؤلفات متنوعة فمن الشروحات كتاب: "خلاصة المعنى وشفاء المضنى في شرح أسماء الله الحسنى" و"تنبيه الوسنان وري الضمان"⁽⁴⁾، ومنها كتب تفسير القرآن ككتاب: "تفسير القرآن الكريم"⁽⁵⁾، ومن كتب الأخلاق "التذكرة في قبول المعذرة، وفيما جاء في العفو عند المقدرة" وفي علم أصول الدين له كتب مشهور اسمه "كتاب الفصول في نبذة شافية من علم الأصول"⁽⁶⁾، وفي أصول الفقه "كتاب النصيحة"⁽⁷⁾، وكتب قصائد شعرية كثيرة في التصوف أشهرها: "أشعار ومقطعات في الزهد والوعظ والتذكير"⁽⁸⁾، و"فتاوى في المعيار للونشريسي"⁽⁹⁾.

- تلاميذه: كان لهذا العالم الجليل عدة تلاميذ يحبونه ويلزمونه، نذكر منهم: أبو عثمان سعيد بن حكم بن عمر الطبري (ت680هـ) ومولاه أبو محمد عبد الله (ت698هـ)، والضيرير الواعظ أبو محمد ابن أبي خرص، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن عمر بن الجلاب الإشبيلي نزيل تونس ومحدثها (ت644هـ)⁽¹⁰⁾.

-
- (1): أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، (د.ط.)، مطبعة بيبير فونتانة، الجزائر، 1906م، ص333. أبي عبد الله محمد ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، (د.ط.)، دار الفكر، بيروت، 1995م، ج2، ص165-287، ج1، ص102.
- (2): يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص103.
- (3): التنيكتي، مصدر سابق، ص579.
- (4): يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ج1، ص103.
- (5): ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (د.ط.)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص252.
- (6): محمد بن عبد الرحيم ابن أبي العيش، مصدر سابق، ص8.
- (7): الحفناوي، مصدر سابق، ج2، ص225.
- (8): التنيكتي، مصدر سابق، ص579.
- (9): ابن مريم، مصدر سابق، ص152.
- (10): وسام رزوق، مرجع سابق، ص21.

- وفاته: لم تورد كتب التراجم شيئا عن وفاته، إلا أنه على الأرجح توفي بعد 683هـ، فقد أوردته المقرئ في نفح الطيب، أن ابن رشيد السبتي بدأ رحلته في طلب العلم سنة 683هـ، وكتب أنه لما دخل مدينة تلمسان استمع لخطبة ألقاها ابن أبي العيش، فكان هذا دليلا على أن وفاته كانت بعد ذلك لا قبله⁽¹⁾.

3.2.4. الحفيد: يحيى بن محمد بن عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي:

ويكنى بأبي زكريا، وقد كان فقيها عالما كبيرا من علماء تلمسان، أصوليا، عالم بالفرائض، فذا متنوع المعرفة، وصفه يحيى بن خلدون بقوله: "رجل خير فاضل، ذو معرفة بالفرائض، وبصر بالحساب والهندسة، حجّ وخطب نائبا بجامع فاس الجديد، فاستُجيدت خطبته"⁽²⁾.

4.2.4. الحفيد: أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى بن أبي العيش الخزرجي التلمساني:

كان رجلا فقيها أصوليا، له عدة تواليف في أسماء الله الحسنى، ومجموعة فتاوى نقل بعضها في المعيار، توفي سنة 911هـ⁽³⁾.

والذي يظهر لنا من تراجم أفراد أسرة ابن أبي العيش، أنهم اشتهروا جميعا في تلمسان، رغم أصلهم الإشبيلي، فعرفوا بالفضل والعلم، وتولى معظمهم الإمامة والخطابة بها، كما أن بعضهم كان مقربا من السلطة الحاكمة.

خاتمة:

وختاما نسوق إليكم زبدة هذا البحث المتمثلة في أهم نتائجه والتوصيات المستفادة منه:

- إن ضعف حكام الأندلس خاصة مع نهاية القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي، كان مظهرا من مظاهر الانهزام، حيث تعذر الصمود أمام هجمات الصليبيين، فتفشى الفساد في بلاد الأندلس، ولم يعد للأندلسيين مفر، ولا بديار الأندلس مستقر.

(1): أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، (د.ط)، تحقيق إحسان عباد، دار صادر، بيروت، 1968م، ج 5، ص 274.

(2): يحيى ابن خلدون، مصدر سابق، ج 1، ص 140.

(3): ابن مريم، مصدر سابق، ص 252-253.

- أمام هذه الظروف المنفرة التي عاشها الأندلسيون، قرر كثير منهم الهجرة بحثا عن سبل العيش الكريم، فاختار العديد منهم بلاد المغرب الأوسط موطنًا لهم ومستقرا، خاصة بعدما لاقوه من حفاوة استقبال، لدى الحكام والرعية.

- شكل انسجام مجتمع المغرب الأوسط والمجتمع الأندلسي روحا واحدة يصعب التفريق بين أطرافها، بفضل رابط الأخوة الدينية الذي تجسد بينهما خلال الهجرة، ولعل هذا التعامل الحسن، والشعور بحس المسؤولية تجاه المهاجرين، هو ما نحتاجه اليوم، إذ ينبغي لنا العودة لدراسته والتدقيق في تاريخه وأساليبه وسياسته ليتسنى لنا معرفة سبل التكيف مع الهجرات الغير شرعية اليوم، وكيفية الاستفادة منها.

- كان من المهاجرين الأندلسيين الفقهاء والمحدثين شيوخ علم ومعرفة، يرجع إليهم في المسائل الفقهية والعقدية المختلفة والمتنوعة، وكانت لهم أوقاف وإسهامات مادية ومعنوية وإضافات علمية في الزوايا والمساجد، ونبغ فيهم المفسرون وحفظة القرآن فعملوا على تعليم القرآن بالقراءات العشر وعلومه وتفسيره، كما كانوا يشاركون في الحروب ضد الأعداء، ونجد منهم أيضا الأطباء الذين شاركوا في تطوير الطب والصيدلة، إضافة إلى عملهم بالبيماريستانات لإسعاف المرضى، وبالمدارس لتعليم الطب وفنونه، ولا ننسى الموسيقى الأندلسية، والشعر والزجل، والموشحات، والترجمة، والتأليف والتأريخ للأحداث التاريخية والجغرافيا، وغيرها من العلوم المختلفة التي جلبوها معهم وطوروها في المغرب الأوسط التي سخرت لهم كل ما يحتاجوه من دعم مادي ومعنوي.

- استفاد حكام المغرب الأوسط خلال القرن 7هـ/ 13م من الكفاءات المهاجرة في تطوير العلوم المختلفة وتحصيل الصنائع والحرف، ومشاركة العادات والتقاليد والثقافة المتنوعة، لدرجة كبيرة.

- اشتهرت أسرة عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي بتلمسان، بفضل قربهم من الحكام الزيانيين، فكانت لهم إسهامات سياسية وعلمية وحضارية، ومؤلفات وفتاوى جعلت لهم مكانة خاصة بين الناس، فابنه أبا العيش كان فقيها أصوليا، وأما حفيده المكنى بأبي زكريا، فقد كان فقيها صاحب أشغال في عهد السلطان الزياني أبو حموا موسى الثاني، وكان ذا خير وفضل، وله معرفة بالفرائض، وبراعة في الحساب والهندسة وقدرة على الخطابة، أما عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي فهو عالم موسوعي له علم

بالبونائق، فهو خطاط بارع، وإمام الجامع الأعظم بتلمسان وخطيبه، وأسرت أسرته علم وخلق ودين مثلها مثل كلّ أسر الأندلسيين الطيبين الذين اختاروا المغرب الأوسط ملاذا لهم وبيتا يأويهم ويحميهم، فأحسنوا وفادتهم عليه وخدموه بكلّ ما أوتوا من علم وقوة ودين.

المصادر والمراجع

- ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (د.ط)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت).
- أبو جعفر أحمد بن الزبير، صلة الصلة، تحقيق: أبي العلاء العدوي، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008م.
- أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، (د.ط)، مطبعة بيبير فونتانة، الجزائر، 1906م، ص333. أبي عبد الله محمد ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، 1995م.
- أحمد بابا التنبكتي، نيل الابهتاج بتطريز الديباج، تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م.
- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، (د.ط)، تحقيق إحسان عباد، دار صادر، بيروت، 1968م.
- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، (د.ط)، بيروت، 2013م.
- أنطونيو دومينغيز هورتز وبرنارد وينثنت، تاريخ مسلمي الأندلس الموريسكيون - حياة ومأساة أقلية-، ترجمة عبد العالي صالح طه، (د.ط)، دار الإشراق، قطر، 1988م.
- جورج مارسلي، تلمسان، ترجمة سعيد دحماني، (د.ط)، دار التل للنشر، الجزائر، 2004م.
- سلمى خضراء الجيوسي، الحضارة العربية في الأندلس، ط1، مركز الوحدة العربية، لبنان، 1998م.
- عبد الرحمن ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، (د.ط)، دار الفكر، لبنان، 2000م.
- عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، -دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية-، (د.ط)، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.

- علاوة عمارة وآخرون، المغرب أوسطيات، دراسة في تاريخ وحضارة الجزائر في العصر الإسلامي الوسيط، ط1، منشورات مكتبة اقرأ، قسنطينة، الجزائر، 2013م.
- فرنان برودويل، المتوسط والعلم المتوسطي، تعريب مروان أبي سمرا، (د.ط)، دار المنتخب، بيروت، 1993م.
- فؤاد طوهارة، الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط- السياق التاريخي والمجال الجغرافي، مجلة حوليات التراث جامعة مستغانم، العدد 15، 2015م.
- محمد بن عبد الرحيم ابن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي، تنبيه الوسنان، مخطوط خزانة المسجد الأعظم بوزان، المملكة المغربية، رقم 479.
- محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، الأسفار 2، 5، تحقيق: إحسان عباس، (د.ط)، دار الثقافة، بيروت، 1965م.
- محمد بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر 8، تحقيق: د محمد بن شريفة، (د.ط)، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984م.
- محمد رزوق، الأندلسيين وهجراتهم إلى بلاد المغرب خلال القرنين (17/16م)، ط3، إفريقيا الشرق، المغرب، 1998م.
- محمد سعداني، الأندلسيون وتأثيراتهم الحضارية في المغرب الأوسط (من: ق 7-9هـ/13-15م)، (د.ط)، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، 2016م.
- ميلودة الحسنواي، الموريسكيون في الفكر التاريخي، قراءة في الأبحاث والدراسات الموريسكية الإسبانية، (د.ط)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2001م.
- ناصر الدين سعيدوني، الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، التجربة الأندلسية بالجزائر، (د.ط)، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1996م.
- ناصر الدين سعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر مساهمتها العمرانية ونشاطها الاقتصادي ووضعها الاجتماعي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مجلة أوراق، العدد4، مدريد، 1984م.
- وسام رزوق، ملامح من النقد الكلامي عند أبي العيش التلمساني، (د.ط)، جامعة القرويين، فاس، المملكة المغربية، (د.ت).
- يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق: حميد حاجيات، عالم المعرفة، الجزائر، طبعة خاصة، 2011م.